

علم التاريخ : فوائده ودوره في التربية والتكوين

أ.عبد الحكيم بن تركية

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

التاريخ ليس هو الحوادث، إنما هو قراءة وتفسير هذه الحوادث واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزيئات ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان. والتاريخ هو سجل الأحداث الماضية والمحاولات البشرية الدائمة، لأن الحاضر هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضر. وعليه يحتاج الفرد وأيضا الشعوب والأمم إلى الماضي ويعودون إليه باستمرار لدراسة تجارب الآباء والأجداد وإضافتها إلى تجاربهم الخاصة واستخلاص العبر والمواظب والدروس التي تساعدهم على فهم الحاضر وإعداد أنفسهم لمواجهة المستقبل.

قديمًا قبل أن يهتدي الإنسان إلى الكتابة، كان الناس يتذكرون قصص من سبقوهم ويتناقلونها أبا عن جد على شكل روايات شفوية، وبعد ظهور الكتابة أصبح الإنسان يدون ويسجل تجاربه وأفكاره ليبلغها إلى الأجيال اللاحقة فكان الغرض الذي من أجله تحفظ وتثقل الروايات من جيل إلى جيل هو توظيف الماضي لاستخلاص العبر والدروس.

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تحثنا على التذكر والاعتاظ واستخلاص العبر والدروس من الأحداث الماضية، وتحذرننا من مغبة الوقوع في المهايي والأخطاء والزلات التي وقع فيها الأولون وعدم تكرارها، لأن الإنسان يتعلم من أخطاء غيره الشيء الكثير. التعلم من أخطاء الغير أفضل وأقل خطرا من أن يتعلم الإنسان من أخطائه الشخصية، وقد لا يتعلم الإنسان من أخطائه، لأن هناك أخطاء قاتلة.

ومن هذه الآيات نذكر الآية 111 من سورة يوسف عليه السلام «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» وأيضا الآية 176 من سورة الأعراف: «ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» ونورد أيضا الآية 119 من سورة هود عليه السلام: «و كلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين». ونذكر هنا أيضا الآية 55 من سورة الذاريات: «و ذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» وغيرها من الآيات القرآنية⁽¹⁾ التي تحث المسلم

على التذكر والاتعاظ واستخلاص العبر . وعليه نقول أن الإنسان بحاجة إلى الماضي ليطلع على تجارب الآخرين ويفهمها ويستوعبها وليفهم حاضره ويلهمه سبيل الرشاد ويسلح بذلك نفسه لمواجهة المستقبل. وبعبارة أخرى فإن دراسة الماضي تزيدنا خبرة وتجربة بالحاضر ، وهو ما يذهب إليه المؤرخ الفرنسي لوسيان فيبث⁽²⁾ L.FEBVRE بقوله " إن الحاجة التي تشعر بها جماعة بشرية في كل لحظة من تطورها للبحث في الماضي، وإبراز الوقائع والأحداث والتطلعات التي تهئ الزمن الحاضر، وتسمح بفهمه وتساعد على الحياة فيه " ⁽³⁾.

و تزداد فوائد التاريخ وأهميته كلما تمكن الإنسان من خلال إطلاعه على الماضي من معرفة وفهم الأحداث كما جرت ووقعت بالفعل، وتفاعل معها وأحيائها كما كانت على حقيقتها لا كما يتصورها هو أو كما يريد أن تكون، وحينذاك تكون العبر والدروس جمة ومفيدة، وهو ما يوضحه ويؤكدده قسطنطين زريق بقوله : " إن التاريخ هو السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه كما كان على حقيقته، لا كما نتوهم أنه كان.و كذلك ليس تصور الماضي كما يجب أن يكون "⁽⁴⁾

والإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا لا يمكنه في أي حال الاستغناء عن دراسة ماضيه ، فينبغي عليه أن يعرف تاريخ تطوره وأعماله ومنجزاته وآثاره بسليبياتها وإيجابياتها وأن يقيّمها عبر مختلف العصور ، ويسعى إلى وضع النقاط على الحروف بالكشف عن عيوب الماضي وأخطائه كما هي دون زيادة أو نقصان، والعمل على تجنب عوامل الخطأ في الحاضر والمستقبل أيضا، لأن السكوت وعدم كشف عيوب الماضي يعد نوعا من التضليل ولا يخدم مصلحة الأمة والجماعة بل يوقعها ويدخلها في دوامة المشاكل ونفقا لا خروج لها منه إلا بالاعتراف بأخطائها وإصلاح ما يمكن إصلاحه. وقد أكد على هذا العديد من المفكرين والمؤرخين ، نذكر منهم المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ⁽⁵⁾ الذي يحث الجميع على العودة إلى التاريخ ودراسته بوعي وهذا لأهمية الفوائد التي نجنيها من دراستنا للتاريخ بقوله: "ما أكثر الفوائد التي من الممكن أن تحققها الدول من دراسة التاريخ! وما أعظمها! إن التاريخ ينقل إلى الأجيال التالية ذكرى الذين رحلوا، ويقف بثبات ضد عوامل النسيان ويحض الذين يطلعون عليه من حين إلى آخر على الفضيلة ، بالثناء الذي يطرحه عليها، ويهاجم التاريخ الرذيلة باستمرار بالعمل على تجنب الوقوع تحت سيطرتها. وهكذا يجب أن يكون ذلك هو اهتمامنا الكلي، فكل أعمال الماضي ستوضح بجلاء مع ذكر فاعلها أيا كانت شخصيته." ⁽⁶⁾

و قد نحا في هذا ابن الأثير (ت630هـ - 1233 م) في كتابه "الكامل في التاريخ" والسخاوي (و831هـ - 1427م، ت902هـ - 1497م) في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" والمقرئزي (ت845هـ - 1442م) في مقدمة كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" إذ يقول: "وبعد، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا لما يحويه من المواعظ والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار، و الاطلاع على مكارم الأخلاق ليقبض بها، و استعمال مدام الأفعال ليرغب عنها أولو النهى"⁽⁷⁾

أما ابن خلدون (و732هـ - 1332م، ت808هـ - 1406م) فقد أكد في مقدمته أهمية وفضل علم التاريخ وفوائده العديدة والجمّة، بقوله: "أعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم، و الملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا."⁽⁸⁾

لقد فهم ابن خلدون أن فائدة التاريخ هي العظة والعبرة والاقتداء بما خلف السابقون من الآثار الحميدة التي كانت أساس بناء وتشديد الحضارات، و ضرورة التفطن إلى النقائص والأخطاء التي ارتكبها الأولون والبعدها عنها، لأنها كانت سبب زوال الحضارات والدول وتأخر الشعوب والأمم، و هو الذي عاصر فترة بداية التفكك والانحطاط في العالم الإسلامي، و انقسامه إلى دويلات متناحرة تغير عليها جحافل الغزاة من كل جهة، و لهذا عنون مؤلفه الضخم "بالعبر" وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. لقد كان ابن خلدون ذو نظرة ثاقبة في فهم الأحداث من خلال أبعادها الحضارية والمكانية والرمانية وفلسف التاريخ والمجتمع، فكان بذلك مؤسس علم الاجتماع (العمران) وواضع علم التاريخ⁽⁹⁾ كما قال الأستاذ روبرت فلنت⁽¹⁰⁾ "استحق أيضا وعن جدارة لقب فيلسوف الحضارة الذي أطلقه عليه أرنولد توينبي."⁽¹¹⁾

ومن الذين اعتنوا بالتاريخ والكتابة التاريخية، و أهمية التاريخ وفوائده ودوره في تربية وتكوين أفراد المجتمع بتلقينهم الأخلاق الحميدة والفضائل الخاصة والعامة على حد سواء الفيلسوف الإنجليزي بولنجبروك⁽¹²⁾ في قوله: "لقد بان لي أنّ دراسة التاريخ دون سواها أصلح الدراسات لتعويد الإنسان الفضائل الخاصة والعامة"⁽¹³⁾ أما المؤرخ مارك فيرو، فيذهب أبعد من ذلك ويشدد على ضرورة تدريس التاريخ للجميع وخاصة الأطفال الناشئة منذ نعومة أظفارهم، و يؤكد أنه لا يمكن الاستغناء عنه كضرورة

حليب الأم للطفل، لاكتساب المناعة الفكرية والثقافية واللغوية وبناء شخصيته والحفاظ على هويته، قائلاً: "إنّ الأيديولوجية الرئسية الأولى في أي بلد هي التاريخ، و هي الشيء الوحيد الذي يبقى عالقا بأذهان الأطفال ثم الكبار، فالشيء الذي يأخذه الطفل في بيته وفي المدرسة الأولى هو الذي يؤثر على مجرى حياته فيما بعد، هو الذي يبقى ولن يؤثر فيه أي شيء آخر فيما بعد. فالتكوين الأولي هو الذي يؤثر، هو الأيديولوجية الأولى. الطفل يأخذ الأيديولوجية من المنزل مع حليب الأم ومع الأبجدية في المدرسة." (14)

ومن الذين اشتغلوا بعلم التاريخ وأدركوا أهميته ودوره في التربية والتكوين وبناء الإنسان السوي الصالح لنفسه وأسرته ووطنه وأمته، نذكر الفيلسوف الألماني فخته⁽¹⁵⁾ الذي لم يجد أمامه وسيلة يلجأ إليها لضم الصفوف وحرصها وتوحيد الوطن المجزأ ومواجهة الغزو الأجنبي لبلاده سوى علم التاريخ الذي اعتبره المربي الأول والمكون للأمة، في ظل الأوضاع التي كانت تعيشها آنذاك ألمانيا المنقسمة على نفسها سياسياً، فاقتنع فخته أنّ تغيير أحوال وأوضاع ألمانيا، يمر حتماً على تغيير الواقع الداخلي - أي تغيير الفرد والإنسان الألماني من الداخل - لأن الإنسان هو الأساس في أي عملية تغيير، وهو الذي يستطيع التغيير واللاتغيير. وهو ما جاء به المولى عز وجل في كتابه العزيز الحكيم في الآية 11 من سورة الرعد: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" صدق الله العظيم.

لقد أدرك فخته أنّ تلقين دروس التاريخ يبدأ من المراحل الأولى للتعليم ويستمر إلى المراحل العليا، بل يجب أن يواكب مختلف مراحل التكوين وعمر الفرد ككل، لأن الإنسان مهما بلغ من النضج الفكري والثقافي، ومهما كانت الدرجة التي وصلت إليها تجاربه وخبراته فهو بحاجة إلى تجارب الآخرين والعودة إلى التاريخ لاستلهام الدروس والعبر والمواعظ.

لقد وجد فخته في علم التاريخ خير معين له لتعليم النشء وتربيته وبث وغرس الروح الوطنية في صفوفه، بل أنه لم يتوان في وضع علم التاريخ في نفس مرتبة الكتاب المقدس (الإنجيل)، فقال: "التاريخ ينبغي أن يلحق للصغار، و يدرس للكبار كالإنجيل وبنفس التقديس والتعظيم".⁽¹⁶⁾ وهو ما ذهب إليه مواطنه ترتشكيه⁽¹⁷⁾ بقوله: "لا أكتب التاريخ إلا في سبيل المجد الوطني والعزة القومية ولولا هذه الغاية لكسرت قلمي".⁽¹⁸⁾ لقد كانت الكتابة التاريخية لديه موجهة لتلقين الدروس والعبر وتقديم المواعظ ليقوي في أمتة الشعور القومي والنزعة الوطنية لدفعها نحو التكتل وضم الصفوف وحرصها

وتحقيق وحدتها والنهوض بها، فكان يقول: "إنَّ القلب القوي الذي يشعر بأنَّ مسرات وطنه وأحزانه هي مسراته وأحزانه هو وحده الذي يستطيع أن يكون صادقا في سرده للتاريخ.⁽¹⁹⁾ لقد ساهمت هذه الآراء والكتابات في بث وغرس الروح القومية والنزعة الوطنية لدى الألمان ودفعتهم إلى التكتل وضم الصفوف ورصها وتحقيق الوحدة التي كانوا يسعون إليها سنة 1871م بهزيمتهم للفرنسيين، وبناء أجيال ضحت بالنفس والنفيس، وكونت رجالا أصحاب مبادئ وإرادة صلبة لا تلين ولا تعرف التواكل نابذة كل الأفكار والأخلاق الضحلة، ومن هؤلاء الرجال نذكر الدكتور ليوبولد بويتش أستاذ التاريخ بثنائية ليننر الذي أثنى عليه هتلر ثناء عطرًا في مذكراته التي حملت عنوان "كفاحي" بقوله: "وربما من الأمور الحاسمة في حياتي المقبلة كلها أنَّ حسن طالعي قد وهبني أستاذًا للتاريخ... لم يكن قادرا على اجتذاب انتباهنا فحسب ببلاغته المذهلة، بل كان في وسعه أيضا أن يحملنا معه إلى الآفاق التي يريدها... وكثيرا ما كان ينقلنا وكأنه يستخدم السحر إلى الأيام الماضية ويستخلص من ضباب الزمن الذي انقضت عليه ألوف السنين الحقائق التاريخية الجافة محولا إيها إلى واقع ظاهر بيِّن... وكنا نجلس هناك تلهبنا أحيانا مشاعر الحماسة فتتدفق الدموع من أعيننا... وقد جعل هذا الأستاذ من التاريخ درسي المفضل..."⁽²⁰⁾

إنَّ إلقاء الدروس بهذه الكيفية هو ما نحتاج إليه في مدارسنا ومؤسساتنا التربوية والعلمية والمهنية والجامعية لتكوين أجيال تعزّز بتاريخها وتفتخر بأبائها وأجدادها وماضيها ومحبة لوطنها محافظة على أصالتها وهويتها وثقافتها بجميع مكوناتها مستعدة لرفع التحدي ومحاربة الأخلاق الضحلة والميوعة الفكرية الثقافية، والتبعية والتقليد الأعمى للغرب الذي تفسى في أوساط المجتمع وعلى الخصوص الشباب منهم، وهو ما تناوله المرحوم العلامة الشيخ مبارك الميلي في كتابه: "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" بقوله: "متى درسه (التاريخ) أبناء أمة وأحاط خبرا بأدواره شبابها عرفوا وجودهم فلم تبطل قوميتهم القوميات الحية النهمة المجاورة لهم، و أدركوا ما لماضيهم من المجد ما لأسلافهم من الشرف، فلم يقبلوا تقييص المنقصين وعبث المدلسين وقبح المغرضين، وشعروا بغز السيادة ولذة الحياة فأنفوا من سيطرة المستبدين ولم يخضعوا لذل المستعبدين."⁽²¹⁾

وعليه يصح قولنا أنَّ الشعوب والأمم وخاصة المتخلفة منها هي في أمس الحاجة إلى دروس التاريخ أكثر من غيرها في كل مراحل أطوارها ومنها المراحل العصبية والصعبة على الخصوص الأمة الإسلامية المستهدفة في دينها وعقيدتها وثوابتها اللغوية

الثقافية لاستخلاص الدروس والعبر والمواظ على تساعدها على تجاوز المحن والنكبات والأزمات، وهو ما لاحظته المفكر الروسي نقولا برديايف⁽²²⁾ وحث عليه بقوله: "إنَّ عهود النكبات في التاريخ الإنساني كانت دائما حافزا إلى التفكير في الماضي والمصير ومثيرة للاهتمام في تفسير التاريخ وتعليقه."⁽²³⁾

إنَّ الاهتمام بالعلوم الاجتماعية في التربية والتكوين عبر مختلف الفروع والأطوار وعلى الخصوص مادة التاريخ ما زال يثير اهتمام المربين والسياسيين على حد سواء في جميع دول العالم وعلى الخصوص الدول المتقدمة من أجل الحفاظ على هويتها الوطنية وحفظ الذاكرة الجماعية من النسيان والتشويه وعلى الخصوص لدى الشباب والنشء الجديد لمواجهة الغزو الثقافي الأجنبي. ومن هذه الدول نذكر فرنسا على الخصوص، التي تحركت فيها السلطات العليا بكامل ثقلها سنة 1983م فكانت هذه السنة سنة للتاريخ في فرنسا. فقام رئيس الجمهورية آنذاك فرانسوا ميتران بعقد مجلس للوزراء خاص بالتاريخ أطلق خلاله صيحة إنذار بقوله: "إنَّ نقائص تعليم التاريخ تقود إلى فقدان الذاكرة الجماعية لدى الأجيال الجديدة"⁽²⁴⁾ وبعد أن استعرض الظروف التي تكتنف الاهتمام بالتاريخ في التعليم والأسرة والمجتمع عموما صرح قائلا: "إنني لمشدوه وحزين جدا للوضع الذي يعانيه الاهتمام بالتاريخ في فرنسا، وأنَّ أجهزة الإعلام مسئولة بنفس الدرجة مثل رجال التعليم ورجال التربية ورجال الثقافة والأسرة"⁽²⁵⁾. وفي اليوم التالي أرسل كاتب الدولة للتربية إلى إحدى ثانويات باريس ليحضر درسا في التاريخ وجلس في الصف الخلفي الأخير كأى تلميذ، وفي النهاية قال: "اسمحو لي بكلمة واحدة فقط: جئت إليكم هنا لاستمع معكم إلى دوي التاريخ (ضجيج التاريخ) عن أبطال المقاومة الفرنسية عن جون مولان"⁽²⁶⁾ وجون جوريس⁽²⁷⁾ عن أمجاد وخلود فرنسا⁽²⁸⁾.

وبعد ذلك عقدت وزارة التربية ندوة خاصة بهذا الموضوع افتتحها رئيس الوزراء ببيير موروا بقوله: "ينبغي أن يستعيد التاريخ مكانة رفيعة في التربية، ومن اللازم أن يكون شأنه ومكانته قبل شأن المواد الأخرى المرتبطة بالعلوم الاجتماعية، فهو الذي يفتح أمام الشبان طريق البحث والتفكير في نشأة الإنسان وأصوله ومستقبله، وهو الذي يتوجب عليه أن يقدم للنشأة الإطار الزمني والخيطة الرائد للالاب (الثابت)، كي يتيح لهم أن يتطوروا وهم يدركون الماضي ويفهمونه ... إن عطاء التسلسل الزمني هذا عطاء لا يستغنى عنه، وينبغي أن يبدأ منذ السنوات الأولى من الدراسة، ولهذا فإن الطرق التقليدية القائمة على الحفظ واكتساب المعلومات ينبغي ألا تهجر، دون أن

يعني ذلك إغفال مكتسبات أحدث البحوث التربوية.⁽²⁹⁾ وبناءً على توصيات الندوة، اتخذ مجلس الوزراء قرارات تهدف إلى دعم تدريس التاريخ والاهتمام به في جميع به في جميع مراحل وأنواع التعليم، أهمها:

● تخصيص وقت كاف لتدريس التاريخ منذ السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية.
● ربط تعليم التاريخ والجغرافيا بتعليم المواد الأخرى كاللغة الفرنسية⁽³⁰⁾ والرياضيات.

● العناية بتدريس التاريخ في المدارس المهنية والفنية ولا سيما تاريخ العلوم والتقنيات وتوجيه عناية خاصة لإعداد المعلمين إعداداً مستمراً من أجل تدريس التاريخ، وينبغي أن يكون للتعليم العالي دور في ذلك.⁽³¹⁾

إذن فحاجة الأمم ومنها الأمة الإسلامية إلى التاريخ الذي هو منهاج لاستخلاص الدروس والعبر والمواظ كحاجة الفرد إلى العقل، فإذا كان الفرد لا يحيا بدون عقل، فإن الأمم لا يمكنها أن تحيا بدون تاريخ وذاكرة جماعية، و هو ما شدد عليه الفيلسوف الألماني شوبنهاور⁽³²⁾ بقوله: "إنّ التاريخ للأمم بمثابة العقل للأفراد."⁽³³⁾ والتاريخ الذي يتضمن القيم الدينية والتي هي جزء من هويتنا ضروري لنا كأفراد ومجتمعات وأمم لتعميق وتشبث إيماننا بالله واليوم الآخر، وأيضاً لرفع المعنويات في الظروف العصيبة والصعبة والتعرف على مواقف الأسلاف والأنبياء والرسل والصحابة الكبار رضوان الله عليهم جميعاً في أوقات الشدة كما في أوقات الرخاء، مثلما فعل تشرشل⁽³⁴⁾ في بداية الحرب الثانية (39- 1945) عشية سقوط باريس بين أيدي الألمان في أواخر مايو 1940، فبعد نهاية أحد الاجتماعات التي عقدها مع مجلس وزرائه، فإذا به يطلب من سكرتيره كتاباً دينياً⁽³⁵⁾ لجورج بورو عنوانه "الإنجيل في إسبانيا" يحكي في فصول منه عن قدرة الإنجيل على البقاء في إسبانيا فاعلاً ومؤثراً طوال خمسمائة (500) عام من الحكم الإسلامي لإسبانيا في العصر الأندلسي.⁽³⁶⁾

إذن نقول ما أحوجنا إلى فهم واستيعاب دروس التاريخ الوطني والعالمي للتذكر والاتعاظ واستخلاص العبر وما أحوجنا هذه لفهم واستيعاب وتطبيق ما جاء به القرآن الكريم والتذكير به "و ذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين" الذاريات الآية 55. لأننا نستطيع أن نتعلم الكثير من دروس التاريخ، فهو يقدم لنا معينا لا ينضب من التجارب الإنسانية المفيدة التي يمكن أن نسترشد بها ونأخذ الكثير منها، ومن تاريخنا وتاريخ الأمم نشير إلى عدة أمثلة ونماذج على سبيل الحصر فقط منها: تجربة الأمة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم التي انطلقت من الصفر من حيث

الإمكانات، ولكنها نفذت خططها ومشروعها الحضاري في كل المجالات معتمدة على وعي الفرد والجماعة التي اتخذت على عاتقها تبليغ الرسالة السماوية بكل أمانة وصدق أينما حلت، والإرادة الخلاقة المبدعة التي تميز بها الجيل المعاصر للرسول(ص) وأيضا في فترة الخلفاء الراشدين.

ونذكر أيضا تجربة الصين بعد أكتوبر 1949، فالصينيون تذكروا أنّ جدّهم يوكنج حول الجبال فقاموا هم بتحويل البلاد إلى مزارع وورشات ومصانع⁽³⁷⁾ وأنجزوا أكبر السدود في العالم، ورغم العدد الهائل من السكان ما يزيد عن 1,4 مليار نسمة فإن البلاد تصدر الحبوب. بفضل التفاني في العمل والتضحية والتخلي بالروح الوطنية، أصبحت الصين تنافس وتزاحم الدول الكبرى في جميع الميادين ومنها ميدان الكمبيوتر، فتحوّلت من العملاق النائم إلى العملاق الزاحف. نذكر أيضا بالتجربة اليابانية منذ 7 نهاية القرن التاسع عشر، وألمانيا بين الحربين، وأيضا كوريا الجنوبية، وتجارب النمرور الآسيوية: ماليزيا، تايلاندا، هونغ كونغ، وسنغافورة.

إنّ هذه الأمم راهنت منذ انطلاقتها على الإنسان(الفرد) الذي هو الطرف الأساسي ومحور عملية البناء والتشييد، فاهتمت أيما اهتمام بالجانب التربوي والتعليمي شكلا ومضمونا وربطت بين الجانب النظري والتطبيقي، وحافظت على تراثها وثقافتها ورصيداها التاريخي الغني ونهلت منه لتربية وتكوين أجيال تعزّز بوطنها ومتأهبة لتلبية نداء الوطن والتضحية بالنفس والنفيس من أجله أينما كانت في الداخل أو في الخارج، وكونت أجيالا ذات أخلاق عالية وإرادة صلبة لا تلين، تقدس الوطن وتخدمه في السراء والضراء، تأكل الغلة ولا تسب الملة. كما يقول المثل عندنا(ياأكلون الغلة ويسبون الملة). ثم إنّ الأخلاق النبيلة الكريمة هي أساس الاستقرار الاجتماعي الاقتصادي السياسي للبلاد، وعليه تركز وتتوقف كل المخططات والمشاريع التنموية، وهو رأس المال الحقيقي للأمم والشعوب فإن افتقدته عمته الفوضى والمشاكل وتعطلت دواليب التنمية⁽³⁸⁾ وزالت وانمحت من على الأرض كما قال الشاعر أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ❖❖ فان ذهب أخلاقهم ذهبوا

إن الأمم التي اعتمدت على أجيال تربت على تقديس العمل والأخلاق الكريمة السامية والمشبعة بالروح الوطنية هي التي تمكنت من بناء دولها ورفعت شأنها بين الأمم فكانت خير خلف لخير سلف. إذا فالأجيال المشبعة بالروح الوطنية والمقدسة للعمل والمتمسكة بالأخلاق الفاضلة والمحافظة على تقاليدها وثقافتها الأصلية هي

أساس نجاح كل بناء حضاري. و عليه نقول أن بناء الحضارات وتطورها ليس خططا أو أرقاما وإحصائيات على الورق وأدوات مادية فقط، و إنما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار قيمة الإنسان ذاته من حيث الكفاءة والأمانة، لأن الإنسان هو أساس عملية البناء وهو الهدف والغاية من العملية ذاتها، و عليه يجب أن نشمّن إرادة الإنسان في تحويل هذه الخطط والأفكار إلى واقع ملموس وإنجازات تكون مفخرة له ولللأجيال القادمة من بعده. وبعبارة أخرى لابد أن يكون الفرد واعيا مدركا لما يقوم به، قادرا على تحمل مسؤولية أعماله وأفعاله ونتائجها وعواقبها، ذو إرادة حضارية، لأنه هو -أي الفرد-

القادر على التغيير أو اللاتغيير. وهنا نكتفي بذكر مثال واحد هو نجاح الخطة التي وضعها الدكتور شاخ⁽³⁹⁾ لإعادة بناء وتعمير ألمانيا بعد الحرب الأولى (33- 1936) وبدون رصيد من الذهب ونفس الخطة التي وضعها شاخ فشلت في إندونيسيا بعد 1945 رغم الأموال الهائلة التي رصدت لها⁽⁴⁰⁾، إذا فنجاح الخطة في ألمانيا يعود إلى وجود أمة مثقفة واعية متفاعلة مع بيئتها، ذات إرادة حضارية قادرة على رفع التحدي، وفشلها في إندونيسيا سببه قلة المثقفين والمتعلمين وقلة الوعي وغياب الإرادة الحضارية المطلوبة لرفع التحدي إلى جانب اختلاف الموروث الحضاري الثقافي بين البلدين. وعليه فالإرادة الحضارية المشبعة بالروح الوطنية هي التي حركت الشعب الألماني بين الحربين وبعدهما ليصنع "المعجزة" الألمانية، والصيني بعد 1949 وقبلهما الياباني، وغيرهم.

و الإنسان مجبول كما هو معروف على إتباع المنحدر (السهل) إذا لم تكن وراءه قوة دافعة إلى الأعلى تبين له طريق الخير والشر وجزاؤهما وتدفعه إلى توطين النفس وتعويدها على أعمال الخير، "وهديناه النجدين، فلا اقتحم العقبة" سورة البلد الآية 10- 11، والقوة الدافعة هنا تشمل كل ما يدفع الإنسان إلى العمل وبذل العطاء في دنياه ومن أجل آخرته أيضا، والتضحية في سبيل دينه وأهله ووطنه. "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون" سورة التوبة 105.

و في هذا السياق نقول أنّ روح التضحية في سبيل الدين والوطن والإيمان بعدالة القضية والشعور بالمسؤولية هي التي حركت نفرا من شباب الجزائر سنة 1954 "جماعة 22" ليخلصوا وطنهم من الاحتلال الفرنسي وشعارهم: النصر أو الاستشهاد لا غير. فكان لهم ما أرادوا فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، و هؤلاء ينطبق عليهم قوله عز وجل: "إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى" سورة الكهف الآية 13.

واليوم بعد انقضاء خمسين سنة من عمر الاستقلال، لنتساءل إهل حافظنا على الأمانة وواصلنا السير على درب وخطى أبطال المقاومة من الأمير عبد القادر إلى رجال الفاتح من نوفمبر الأشاوس في خدمة الوطن والإخلاص له، وحققنا أمانهم في أن يروا هذا الشعب يعيش معززا مكرما في وطنه وخادما له ومضحيا من أجله لا غير. الواقع يجيب بلا، فكل الأخلاق الضحلة التي حاربها هؤلاء الأبطال من استبداد في الرأي واستغلال النفوذ والسلطة لتحقيق المآرب الشخصية والعبث بممتلكات الأمة وثوابتها قد انتشرت وهي تتخر جسد بلدنا الحبيب. "يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار" سورة الحشر الآية 2.

وأسباب ذلك تعود بالدرجة الأولى إلى التخلي عن قيم ومبادئ أول نوفمبر 1954 الهادفة إلى تأسيس جمهورية ديمقراطية اجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية. واستبدالها بجمهورية ديمقراطية لا دينية وهو ما تعمل من أجله بقايا الأهالي من وكلاء فرنسا⁽⁴¹⁾ إبان فترة الاحتلال، إلى جانب أن المدرسة الجزائرية منذ 1962 وهي تراهن على الكم من أجل محو الأمية وتعليم عدد أكبر من أبناء الوطن فكان ذلك على حساب الكيف والنوعية. كما أن قلة الاهتمام بالعلوم الاجتماعية من حيث النوعية وعلى الخصوص علم التاريخ الذي لم يحظ بالمكانة اللائقة به في المنظومة التعليمية، لأن التاريخ بما يحويه من أحداث وتجارب وأمثلة حية ودروس وعبر له دور لا يستهان به في تربية النشء وغرس فيه حب الوطن، والعمل على تشييده لا تخريبه.

والتعاون والتضحية في سبيل الوطن، وغيرها من القيم والمثل العليا التي افتقدناها في أيامنا هذه، إلى جانب أن دروس التاريخ ما زالت تحمل الكثير من بصمات المدرسة التاريخية الفرنسية⁽⁴²⁾ مع قلة الاهتمام بالعلوم الاجتماعية من حيث الكيف وعلى الخصوص علم التاريخ الذي هو أبو العلوم كما كتب في ذلك المؤرخ الإغريقي هيرودوت (484- 425 ق م) ومن ثمة إهمال ومحاربة تراثنا الثقافى الدينى واللغوى.⁽⁴³⁾ في المقابل زاد تلهفنا على تقليد الغرب في كل صغيرة وكبيرة، واستيراد الكثير من القوانين التنظيمية لتسيير دواليب وأجهزة الدولة وعلاج مشاكل وأزمات المجتمع الجزائري، فأصبح حالنا ينطبق عليه حال قصة طائر الغراب مع الحمامة. وجراء هذه السياسة لحقت البلاد والأمة أضرارا كبيرة وأصبحنا ندور في حلقة مفرغة بل أقول أن تباطؤ وفشل الكثير من المشاريع رغم الأموال الهائلة المرصودة لها والتي تذهب هباء أدرج الرياح، سببه النقل الأعمى لقوانين ودساتير ونظريات وأفكار غريبة بعيدة كل البعد عن قيمنا الثقافية والدينية وتقاليدنا العريقة، والتي لا تخدمنا على

الإطلاق، بل إنها تزيد في تخلفنا وتبعيتنا وتعمق أزممتنا وتجربنا إلى الهاوية. ونحن في هذا الحال ينطبق علينا مقولة الزعيم الصيني ماو تسي تونغ⁽⁴⁴⁾: "من يستورد قانونا ليطبقه في بلاده كمن يبرئ قدمه لتلاءم حذاءه".

وأخيرا أقول إذا أردنا التخلص من الأزمة التي نعيشها والخروج من التخلف واللاحق بركب الأمم المتقدمة فعلينا أن نسلك جادة الصواب بالعودة إلى تاريخنا وتراثنا وقيمنا⁽⁴⁵⁾ وتقاليدنا العريقة في تقديس العمل وحب الوطن والتمسك بقيم وأهداف الفاتح نوفمبر 1954 دون إغفال وإهمال مستجدات الحضارة المعاصرة، واعتبار التاريخ في جميع مراحل التعليم درسا من دروس التربية للأمة ولتكوين المواطن الصالح، و نصبح كغيرنا من أمم المعمورة التي تعتبر درس التاريخ ركيزة دروس التربية للأمة فتصوغه بحيث يؤدي مهمة تربوية في حياتها.

وعلى أن نبذ كل الأخلاق الضحلة من مركوبيه وتبعية وانهزامية واتكاليه وغيرها والتوبة إلى الله والوطن من الذنوب والممارسات اللاشرعية واللاأخلاقية المرتكبة في حق الوطن والأمة من متاجرة بتضحيات ودماء الشهداء الزكية الطاهرة والتلاعب بثوابته وقيمه ومصيره وممتلكاته، لأنه كما يقول الفقهاء : ما نزل بلاء بأمة إلا بذنب، و ما رفع إلا بتوبة. ومن أراد أن يغير التاريخ فليغير نفسه مصداقا لقوله تعالى: "إن الله لا يغير بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" صدق الله العظيم.

الهوامش:

(1) ألم يروا كم أهلكنا من قبلكم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ... فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين "سورة الأنعام، الآية 07. ونذكر هنا بالآيتين 11 و48 من سورة الحاقة، والآية 07 من سورة يوسف عليه السلام، والآيتان 137 و138 من سورة آل عمران، وكذلك الآية 34 من سورة النور، والآية 48 من سورة المائدة.

(2) لوسيان فيبر: مؤرخ فرنسي من مواليد مدينة نانسي عام 1878، عين عضو بمعهد الأرض وتطور الإنسانية عام 1922. له عدة مؤلفات منها: مارتن لوتر سنة 1927، و كتاب حول الكفر (الوجود) في القرن 16م ألفه سنة 1942، توفي عام 1956.

Dictionnaire encyclopédique quillet T4 librairie Aristide quillet 1979 p2449.

(3) ليلي الصباغ: دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد بن الوليد دمشق 1979 ص 13

(4) قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، دار العلم للملايين بيروت 1963 ص 49.

- (5) بروكوبيوس procopius : مؤرخ بيزنطي من مواليد سنة 500م بالقسطنطينية له عدة مؤلفات منها كتاب الحروب (545- 554) وكتاب الحكايات (التاريخ السري) توفي سنة 565م .
- (6) محمود محمد الحويري:منهج البحث في التاريخ،المكتب المصري لتوزيع المطبوعات القاهرة 1999 ص21،20.
- (7) نفسه ص 23.
- (8)ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني بيروت ط2 1979 ص 12.
- (9) ج هرثشو:علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي ط2 دار الحداثة بيروت 1982ص32.
- (10) روبرت فلنت R.Flint: فيلسوف انجليزي(و1834- ت 1910) دّرس بجامعة اندروس عام 1864 وجامعة ايدمبورغ عام 1877، عين مراسلا لمعهد فرنسا.أهم أعماله :تاريخ فلسفة التاريخ أصدره 1893 وفلسفة التاريخ في فرنسا وألمانيا عام 1874. للمزيد انظر: Grand Larousse encyclopédique T05 librairie Larousse paris 1962.
- (11)أرنولد توينبي A. Toynbee :مؤرخ انجليزي(و 1889 ت 1976) من أكبر المؤرخين المعاصرين وأغزرهم علما وإنتاجا وأوسعهم شهرة، شارك وفد بلاده أثناء مؤتمر الصلح 1919 بباريس.له عدة مؤلفات منها: العالم بعد مؤتمر السلام 1925، العلم والغرب 1953 الحرب والحضارة 1951، دراسة في التاريخ في 12 جزء ظهرت ما بين 1934- 1961 وهو صاحب نظرية التحدي والاستجابة.للمزيد انظر: عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية ج1 ص833- 834.
- (12) بولنجبروك Bolingbroke فيلسوف وسياسي انجليزي (و1678 ت 1761)اشتهر بقدرته الخطابية، من بين مؤلفاته رسائل في دراسة التاريخ. انظر:ج.هرثشو مرجع سابق ص 20.
- (13) نفسه ص 15.
- (14) مولود قاسم نايت بلقاسم: مفاهيم وصيغ خاطئة عن تاريخنا ، مجلة الثقافة الجزائر عدد 94 يوليو- أغسطس 1986 ص 20.
- (15) فخته Fichte : فيلسوف ألماني من مواليد عام 1762 فر من برلين عشية غزو نابليون لها عاد إليها سنة 1807 وألقى خطابا حول الأمة الألمانية، عينَ عميدا لجامعة برلين عام 1811 إلى وفاته سنة 1814.انظر: Grand Larousse encyclopédique T4 Larousse paris 1961.
- (16)نايت بلقاسم : مجلة الثقافة الجزائر عدد 95 سبتمبر- أكتوبر 1986 ص37.
- (17)ترتشكيه Treitschke : (و1834 ت 1896) مؤرخ وأستاذ وكاتب سياسي ألماني اشتهر بنزعته الوطنية القوية واشتهر أيضا بخطاباته وتأثيره على الرأي العام الألماني ،كانت غايته الأساسية ترسيخ أهمية الوحدة الألمانية وضرورة قيادة بروسيا لها، كان مؤيدا لبسمارك.انتخب في الريشتاغ(1871- 1888) ، من مؤلفاته تاريخ ألمانيا في القرن التاسع عشر أنهى منه خمس مجلدات لم يتجاوز سنة 1847 وتوفي.

- انظر :عبد الوهاب الكيالي ، الموسوعة السياسية ج1 ص 807.
- (18) شوقي أبو خليل :الإسلام وحركات التحرر العربية ط4 1405 هـ، 1985م دار الفكر دمشق ص 5.
- (19) عمار هلال :دور علم التاريخ في التكوين والتعبئة الوطنية، مجلة ألوان الجزائر العدد 62 1985 ص 19.
- (20) وليام شيرر: تاريخ ألمانيا الهتلرية تعريب خيرى حماد، ج1 ط2 يونيو 1966 دار الكتاب العربي بيروت ص43- 44.
- (21) مبارك المليي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج1 مكتبة النهضة الجزائر ص 09.
- (22) نقولا بردايف N. Berdayev :فيلسوف روسي (و1874 ت 1948) شغل منصب أستاذ بكلية الفقه بموسكو سنة 1920، نظرا لأفكاره الثورية والمعادية للنظام الروسي آنذاك نفي سنة 1922، استقر بباريس سنة 1925.من مؤلفاته:فلسفة الحرية 1911، الإنسان والآلة 1933، المسيحية والحقيقة الاجتماعية 1934، من العبودية إلى حرية الإنسان. انظر: Grand Larousse encyclopédique T2 Larousse 1960. paris (23) قسطنطين زريق : مرجع سابق ص 20.
- (24) الثقافة العالمية دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت عدد 16 رجب 1404 هـ مايو 1984 ص 175.
- (25) نايت بلقاسم: مفاهيم وصيغ خاطئة عن تاريخنا ص 18 - 19.
- (26) جون مولان J.Moulin أحد رجال المقاومة الفرنسية (و1899 ت 1943) كان جامعاً ومنظماً للمقاومة الفرنسية خلال الحرب الثانية ، أول رئيس للمجلس الوطني للمقاومة ، وبسبب وشاية سلم للألمان في جوان 1943 ليعدم في نفس السنة. Grand Larousse encyclopédique T07 Larousse paris 1963. (27) جون جوريس J.Jaures :أستاذ وسياسي فرنسي (و1859 ت 1914) اشتغل أستاذا بالتعليم الثانوي ثم أستاذا محاضرا في جامعة تولوز عام 1883. مؤسس الحزب الاشتراكي الفرنسي عام 1901 ومؤسس جريدة الإنسانية L'humanité عام 1904. Grand Larousse encyclopédique 1962. T06 Larousse paris (28) نايت بلقاسم :مفاهيم وصيغ خاطئة عن تاريخنا ص 19.
- (29) الثقافة العالمية، الكويت مرجع سابق ص 175.
- (30) إذا كان دستور البلاد ينص على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية، لماذا هذا الإهمال للغة العربية وتدرّس الرياضيات بحروف لاتينية وليس عربية.
- (31) الثقافة العالمية، الكويت.مرجع سابق ص 176.
- (32) شوبنهاور Schopenhauer :فيلسوف ألماني (و 1788 ت 1860) ترك التعليم في جامعة برلين سنة 1831 ليتفرغ للتأليف والبحث ،من مؤلفاته :الإرادة في الطبيعة 1836، والمشكلتان الأساسيتان في

الأخلاق 1841. انظر: Grand Larousse encyclopédique T09 Larousse paris 1964.

(33) نايث بلقاسم :الثقافة عدد 95 سبتمبر- أكتوبر 1986 ص 37.

(34) تشرشل Churchill : كاتب وسياسي بريطاني (1874 ت 1965) ينتمي إلى أسرة مار ليور البريطانية العريقة المحافظة سياسيا خدم في الحياة العسكرية بالهند وبالسودان عام 1895، أسر في حرب البوير في جنوب إفريقيا ، بعد عودته انتخب نائبا عن حزب المحافظين في البرلمان وبعد أربع سنوات انضم إلى حزب الأحرار. عين وزيرا للتجارة 1910/1908 ثم وزيرا للمستعمرات (المستوطنات) حتى 1922، دخل مرة ثانية البرلمان عن المحافظين عام 1924. تولى رئاسة الوزراء خلال الحرب الثانية. له عدة مؤلفات: منها حياة اللورد راندولف 1906 الأزمة العالمية (23 - 1929) كتاب الشعوب الناطقة باللغة الانجليزية أربعة مجلدات، ومذكرات عن الحرب الثانية (39- 1945) 06 مجلدات، نال جائزة نوبل الأدب عام 1953. انظر Grand Larousse encyclopédique T03 Larousse paris 1961.

وكذلك ، عبد الوهاب الكيالي : الموسوعة السياسية ج1 ص 741 - 742.

(35) أما عندنا فالعكس فوكلاء الاستعمار الجديد في مختلف المستويات يحاربون الدين الإسلامي ويعملون على إبعاده عن حياة المجتمع.

(36) محمد حسنين هيكل : كتاب ولقاء وملاحظة الجزء الرابع (جريدة صوت الأحرار) السبت 19 أوت 2000 العدد 751 ص 10.

(37) بن نبي مالك: المسلم في عالم الاقتصاد ن ، دار الشرق (د.ت) ص 72 - 90 - 92.

(38) نشير هنا إلى أنَّ الكثير من المشاريع استهلكت ما رصد لها من أموال ولم تكتمل بعد، إلى جانب أن الكثير من الشركات والمؤسسات مستها مخططات إعادة الهيكلة واستهلكت الملايير من الدينارات لكنها بقيت عاجزة ، وهذا بسبب فساد المسيرين واللامبالاة والإهمال ووكلاء الاستعمار الجديد والتبعية. ثم أن الرشوة (التشيبة) أصبحت أساس المعاملات والصفقات لمعظم المشاريع إلى جانب التزوير والغش ومنه قطاع البناء الذي فضحه زلزال 21 مايو 2003. ثم لماذا نعتمد على البنائين الصينيين في إنجاز العمارات؟!

(39) شاخت Schacht : (و 1877 ت 1970) مصري في وخبير مالي ورجل دولة صاحب خطة إعادة تأهيل ألمانيا وبدون رصيد من الذهب ترأس بنك ألمانيا 24 - 1929 ، ونجح في تحقيق استقرار العملة المتضخمة 24 - 1925 عين وزيرا للاقتصاد 34 - 1937 قام بتطوير نظام معقد من ضوابط تبادل العملات وتجارة المقايضة مع البلدان الأجنبية فساعد برنامج إعادة التسليح الألماني في ظل حكم هتلر. لم يكن نازيا، اشترك في المؤامرة على حياة هتلر عام 1944 حوكم في نورمبرغ مع مجرمي الحرب وبرأت المحكمة ساحتة في سنة 1946. دعي إلى سوريا عام 1955 للاطلاع على شؤونها المالية وتقديم المشورة والخبرة Grand

Larousse encyclopédique T9 Larousse paris 1964.

وكذلك ، الكيالي عبد الوهاب : الموسوعة السياسية ج3 ص 425 - 426.